

بلاغة التركيب في سورة الكافرين

الدكتور مشهور أحمد اسبيتان - كلية فلسطين التقنية - رام الله - فلسطين

الملخص :

يهدف هذا البحث " بلاغة التركيب في سورة الكافرين " إلى دراسة وبيان بلاغة التركيب في الأساليب التي اشتملت عليها سورة الكافرين ، وتحليلها نحويا وبلاغيا ، فسورة الكافرين لها فضائل ذكرتها الأحاديث النبوية ، وتزخر أيضا بالأساليب واللمسات البيانية التي تظهر علاقة النحو بالبلاغة . فالتركيب أهم مظهر لغوي لإدراك طبيعة النظام النحوي في التواصل اللساني والإنساني للناطقين بالعربية .

وسار هذا البحث وفق المنهج الوصفي في دراسة التراكيب التي اشتملت عليها السورة وبيان البلاغة التي فيها وأثرها في المعنى .

وبني هذا البحث من تمهيد تناول فضائل سورة الكافرين ، وتعريف التركيب ، ومبحث واحد تناول التراكيب في السورة وهي : الخطاب ، والنداء ، والنفي ، والتكرار ، والتقديم والتأخير .

وانتهى البحث إلى مجموعة من النتائج كان أهمها :

— لسورة الكافرين فضائل كثيرة ، منها أنها تعدل ربع القرآن ، وهي براءة من الشرك .

— تنوعت التراكيب في السورة ، وأفادت السياق قوة وإظهارا للمعنى ، وخرجت إلى معان متعددة .

المقدمة :

الحمد لله الذي بسط الأرض ورفع السماء ، وله الجلال والكبرياء ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء ، وعلى آله الشرفاء .

إن الاعتقاد العميق بالعلاقة الراسخة بين اللغة العربية والقرآن الكريم يمهد السبيل للولوج في دراسة بعض مستويات اللغة التي في القرآن الذي سيظل مصدر كل نور ، يمد كل من تتلمذ له بمجديد ، فمهما كتب الكاتبون وأبدعوا فسيبقى الذي فاتهم من القرآن أكثر من الذي أخذوه .

والبلاغة فن من فنون العربية التي لا يستغني عنها أديب أو ناقد . فالأديب يعرف بها سبل القول وطرائق التعبير ، والناقد يميز بها رائع الكلام من رديئه .

والتأمل في جهود بلاغيينا القدامى يجد أنهم وقفوا عند حدود الكلمة والجملة والصورة الجزئية ، ولم يتعدوها إلى العناية ببيان الأساليب الأدبية المتفاوتة ؛ مما يوجب على دراساتها البلاغية المعاصرة الاهتمام الكبير بالإفادة من البحوث الأسلوبية الحديثة باعتبارها اتجاهها رئيسا من اتجاهات النقد الأدبي الحديث، مع الحرص على الانتفاع بتراث أسلافنا البلاغي الذي أودعوا فيه خصائص لغتنا الأدبية ومقوماتها البيانية .

ومن هنا آثرت دراسة هذا الموضوع " بلاغة التراكيب في سورة الكافرين " من أجل دراسة بلاغة التركيب في الأساليب التي اشتملت عليها هذه السورة ، وتحليلها نحويا وبلاغيا فسورة " الكافرون " لها فضائل ذكرتها الأحاديث النبوية ، وتزخر أيضا بالأساليب

واللمسات البيانية التي تظهر علاقة النحو بالبلاغة . فالتركيب أهم مظهر لغوي لإدراك طبيعة النظام النحوي في التواصل اللساني والإنساني للناطقين بالعربية .

وسيقوم هذا البحث على المنهج الوصفي في دراسة التراكيب التي اشتملت عليها السورة ، ثم بيان أثر هذه التراكيب في بلاغة السياق والمعنى .

وبني هذا البحث من تمهيد اشتمل على فضائل سورة الكافرين ، وتعريف التركيب ، ومبحث واحد تناول التراكيب في سورة الكافرين وهي : الخطاب ، والنداء ، والنفى ، والتكرار ، والتقديم ، والتأخير . التمهيد :

فضائل سورة الكافرين :

قال رسول الله — عليه السلام — : " قل يا أيها الكافرون " تعدل ربع القرآن (1) وقال رجل للنبي — عليه السلام — : أوصني قال : " اقرأ عند منامك " قل يا أيها الكافرون " فإنها براءة من الشرك " . (2)

وقال ابن عباس : ليس في القرآن أشد غيظا لإبليس منها ؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك . وقال الأصمعي : كان يقال لـ " قل يا أيها الكافرون " و " قل هو الله أحد " المقشقشتان ؛ أي أنهما تبرئان من النفاق . (3)

ووجه كون هذه السورة تعدل ربع القرآن : أن القرآن مشتمل على الأمر والنهي ، وكل واحد منها ينقسم إلى ما يتعلق بعمل القلوب ، وإلى ما يتعلق بعمل الجوارح ، فحصل من ذلك أربعة أقسام ، وهذه السورة مشتملة على النهي عن عبادة غير الله تعالى ، وهي من الاعتقاد ، وذلك من أفعال القلوب ، فكانت هذه السورة ربع القرآن على هذا التقسيم . (4)

وثبت في صحيح مسلم أن الرسول — عليه السلام — قرأ بهذه السورة وبـ " قل هو الله أحد " في ركعتي الطواف ، وقرأ بها في ركعتي الفجر ، وقرأ بهما في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعا وعشرين مرة أو بضع عشر مرة (5)

وهذه السورة سورة البراءة من عمل المشركين والإخلاص في العمل لله — تعالى — وضعت الحد الفاصل النهائي بين الإيمان والكفر ، وبين أهل الإيمان وعبداء الأوثان ، وفيها تصريح باستقلال عبادة الله وحده عن عبادة الكفار ، وسميت (الكافرون) لأن الله — تعالى — أمر نبيه أن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد ما يعبدون من الأصنام ، وتسمى أيضا سورة المنابذة ، وسورة الإخلاص وسورة العبادة (6)

-
- (1) (الترمذي ، سنن الترمذي ، تحقيق صدقي محمد جميل العطار ، دار الفكر بيروت ، 1414 — 1999 باب ما جاء في سورة الزلزلة ، ج 4 ص 409 .
- (2) (أبو داود ، سليمان بن الأشعث ، سنن أبي داود ، ط 1 ، دار ابن حزم ، بيروت ، 1418 — 1997 ، باب ما يقول عند النوم ، ج 5 ، ص 191
- (3) (القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق عماد زكي البارودي وخيري سعيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ج 20 ، ص 177
- (4) (الدرة ، محمد علي طه ، تفسير القرآن الكريم وإعراجه وبيانه ، ط 1 ، دار ابن كثير ، دمشق — بيروت ، 1430 — 2009 ، المجلد العاشر ، ص 748 .
- (5) (مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ، ط 1 ، دار ابن الجوزي ، القاهرة ، 2010 ، باب ، استحباب ركعتي سنة الفجر ، ص 164
- (6) (الزحيلي ، وهبة ، التفسير المنير ، ط 2 ، دار الفكر ، دمشق ، 1424 — 2003 ، ج 15 ، ص 837 .

التركيب :

لغة: ركبّ الفصّ في الخاتم والسنان في القناة فتركّب فيه . ومن المجاز: ركبّ الشحم بعضه بعضا وتراكب . وركبه الدّين . وركّب ذنبا وارتكبه . (1)

وتراكّب السحابُ وتراكم : صار بعضه فوق بعض. وركّب الشيء : وضع بعضه على بعض والمرّكب : الأصل والمنبت ، تقول : فلان كريم والمرّكب أي كريم أصل منصبه في قومه . ورواكب الشحم : طرائق بعضها فوق بعض في مقدم السنام . (2)

والتركيب : جمع الحروف البسيطة ونظمها لتكون كلمة . (3)

قال تعالى : " في أي صورةٍ ما شاءَ ركبّك " [الانفطار8] أي شكلك وجمعك : فالتركيب بمعنى الجمع والتشكيل . وقال ابن سيده : " ركبّ الشيء : وضع بعضه على بعض ، وقد تركّب وتراكب " . (4)

اصطلاحاً: أوضح ابن جني أن الجملة هي النموذج التركيبي للكلام : فالكلام في تأليفه وتركيبه يبنى على عناصر التركيب التي يشترط فيها أن تكون تامة ومفيدة ، و " هذه صورة الجمل " . (5)

وذكر السكاكي أن الغرض الأصلي من وضع الكلام هو التركيب ؛ لأن الكلم يتمتع وضعه إلا لفائدة ، والأصل في التركيب هو نوع الخير لكثيرته . (6)

وقسم ابن يعيش التركيب إلى ضربين : تركيب أفراد وتركيب إسناد ، فتركيب الأفراد أن تأتي بكلمتين فتركبهما ، وتجعلهما كلمة واحدة بإزاء حقيقة واحدة بعد أن كانتا بإزاء حقيقتين ، وهو من قبيل النقل ، ويكون في الأعلام نحو : معدّي كرب وحضرموت ... ولا

تفيد هذه الكلم بعد التركيب حتى يخبر عنها بكلمة أخرى ... وتركيب الإسناد أن تركيب كلمة مع كلمة تنسب إحداهما إلى الأخرى . (7)

ووقف المحدثون عند المركب وأنواعه وتعريفه ، فقال الغلاييني : " المركب قول مؤلف من كلمتين أو أكثر لفائدة ، سواء كانت الفائدة تامة مثل : " النجاة في الصدق " أو ناقصة مثل : إنك إن تتقن عملك". (8)

-
- (1) (الزمخشري ، أساس البلاغة ، دار الفكر ، بيروت ، 1409 — 1989 ، ص 510 .
- (2) (ابن منظور ، لسان العرب ، ط 3 ، دار إحياء التراث ، بيروت ، 1419 — 1999 ، مادة ركب .
- (3) (أبو الحسن علي بن محمد الحسيني الجرجاني ، الحنفي ، التعريفات ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1421 — 2000 ، ص 60 .
- (4) (ابن سيده ، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، تحقيق ، محمد علي النجار ، ط 1 ، مطبعة الحلبي ، مصر ، 1973 ، ج 7 ، ص 14 — 15
- (5) (ابن جني ، الخصائص ، تحقيق عبد الحكيم بن محمد ، المكتبة التوفيقية ، سيدنا الحسين ، ج 1 ، ص 43 .
- (6) (السكاكي ، مفتاح العلوم ، المكتبة العلمية الجديدة ، بيروت ، ص 67 .
- (7) (ابن يعيش ، شرح المفصل ، تحقيق أحمد السيد سيد أحمد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، المجلد الأول ، ص 44 .
- (8) (الغلاييني ، مصطفى ، جامع الدروس العربية ، المكتبة العصرية ، صيد — بيروت ، 1423 — 2003 ، ج 1 ، ص 13 .

الخطاب :

لا شك أن الخطاب القرآني خطاب رباني صادر من الله خالق كل شيء ؛ لذا تنزهه عن أن يشبه أي خطاب بشري شعرا أو نثرا ، فكان معجزا لا يجاريه أرباب البيان من فحول الشعراء والخطباء العرب . والخطاب القرآني في محورته ، العقلي والنفسي يجعل النفس البشرية تستجيب له وتقبل بقوة حجته العقلية ووضوحها وقدرتها على الإقناع . (1)

وقد تضمن الخطاب القرآني أمورا كثيرة تخص حياة الناس وعلاقتهم برب العالمين ، وأهم هذه الأمور توحيد الله وعبادته وحده ، وترك عبادة الأصنام ، واعتمد في ذلك صيغا كثيرة ، كان منها صيغة فعل الأمر . (2) ولو تأملنا في قوله تعالى : " قل يا أيها الكافرون [الكافرون1] نجد هذه السورة افتتحت بالخطاب الرباني المعتمد على فعل الأمر " قل " . وفائدة كلمة " قل " : أن سيدنا محمد — عليه السلام — كان مأمورا بالرفق واللين في جميع الأمور ، ومخاطبة الناس بالوجه الأحسن ، فلما كان الخطاب هنا غليظا أراد الله — تعالى — رفع الحرج عنه ، وبيان أنه مأمور بهذا الكلام ، لا أنه ذكره من عند نفسه . (3)

وهذا الخطاب له علاقة بتسمية السورة بـ " الكافرون " لأن الله تعالى أمر نبيه محمداً — عليه السلام — أن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد ما يعبدون من الأصنام والأوثان . (4)

والخطاب للكافرين في السورة يتضمن أعنف مواجهة للمساومين على الباطل ، المداهنين للحق ، الذين يفاوضون للخلط بين الحق والباطل ، بغية إقامة مصلحة توفيقية بين متناقضات لا يمكن اجتماعها ؛ لأن أمر التكليف قائم على الخطاب بقوله : " قل " يترتب عليه إعلام الكافرين بأن ما هم عليه باطل حتما ، وأن المبادئ الحق في الحياة لا تقبل التصنيف ، ولا المساومة عليها ، ولا المصالحة فيها . (5)

- (1) الخالدي ، كريم حسين ناصح ، الخطاب النفسي في القرآن الكريم ، ط 1 ، دار صفاء ، عمان ، 1428 هـ - 2007 ، ص 15 - 17 .
- (2) المرجع السابق ، ص 101 .
- (3) الرجيلي ، وهبة ، التفسير المنير ، ج 15 ، ص 842 .
- (4) المرجع السابق ، ج 15 ، ص 837 .
- (5) الميداني ، عبد الرحمن حسن حبنكة ، معارج التفكير ودقائق التدبر ، ط 1 ، دار القلم ، دمشق ، 1420 هـ - 2000 ، ج 1 ، ص 710-711 .

النداء :

النداء أصل التواصل اللغوي بين المتكلم والسامع ، فالجملة الندائية تضيف على التركيب شحنة هامة فتُوجّه إلى السامع والمتكلم . وهي جملة نحوية قائمة على بنية سطحية إنشائية ، وبنية مضمرة خبرية . (1)

ومن معنى كلمة النداء يتبين أنه صيغة لغوية فيها توجيه الدعوة إلى المخاطب وتنبيهه للإصغاء وسماع ما يريد المتكلم . (2)

وإذا أردنا تحديد طبيعة النداء وجب أن ننظر إليه من جهة بنيته اللغوية ؛ لأنه تركيب ثنائي ، يتألف من جملة النداء ومن جملة جواب النداء أو مضمونه . وهو بذلك يشبه تركيب القسم الذي يتكون من جملة القسم وجوابه . واقتضاء النداء للجواب اقتضاء معنوي فحسب ؛ فنداء المخاطب هو تنبيه له أو حث على شيء معين سيلقي عليه من خلال الكلام . (3)

وأسلوب النداء أو جملة النداء تبني على شيئين : أداة النداء ، ومنادى ، ومن اتحادهما ينشأ مركب لفظي . وحروف النداء خمسة : يا و أيا وهيا والهمزة وأي . و " يا " أم الباب واختصت بأن نودي بها القريب والبعيد ، واستعملت في الاستغاثة دون غيرها (4)

وورد النداء في هذه السورة في آية واحدة هي " قل يا أيها الكافرون " [الكافرون1] وتظهر بلاغة تركيب النداء في هذه الآية فيما يلي :

1— سبب التزول : ذكر ابن اسحاق عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ، وأممية بن خلف ، وأبو جهل ، لقوا رسول الله — عليه السلام — فقالوا : يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فإن كان الذي جئت خيرا مما بأيدينا ، كنا قد شاركناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه . وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما بيدك ، كنت قد شاركتنا في أمرنا ، وأخذت بحظك منه ، فأَنْزَلَ اللهُ تعالى " قل يا أيها الكافرون " فيئسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه . (5)

وكان النبي — عليه السلام — يأتيهم في ناديتهم ويقول لهم : " يا أيها الكافرون " [الكافرون1] مع ما في هذا الوصف من الإرذال بهم ، وهو يعلم أنهم يغضبون من أن ينسبوا إلى الكفر ، ويدخلوا في جملة أهله لأنه محروس من عند الله تعالى لا يبالي بهم . (1).

(1) شابوسغ ، حفيظة أرسلان ، الجملة الخيرية والجملة الطلبية ، ط1 ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، 1425 — 2004 ، ص 248 .

(2) حسن ، عباس ، النحو الوافي ، ط5 ، دار المعارف ، القاهرة ، جـ 4 ، ص 1 .

(3) قباوة ، فخر الدين ، إعراب الجمل وأشباه الجمل ، ط3 ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، 1401 — 1981 ، ص 103 .

(4) الحريري ، أبو محمد القاسم بن علي ، شرح ملحمة الإعراب ، تحقيق د. فائز فارس ، ط 1 ، دار الأمل ، إربد ، 1412- 1991 ، ص 153 .

(5) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج 220 ، ص 177 .

2_ النداء بـ " يا أيها " وذلك للمبالغة في طلب إقبالهم لئلا يفوتهم شيء مما يلقي إليهم (2) لأن (ها) الداخلة على (أي) تفيد التنبيه ، وهي تدخل على " أي " كتابةً ، ولكنها تدخل في الأصل على نعت أي وهو " الكافرون " وهي واجبة للتنبيه على أنه المقصود بالنداء (3)

3_ النداء بـ " الكافرون " دون الذين كفروا . للدلالة على أن من كان الكفر وصفا ثابتا له لازما لا يفارقه ، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه ، ويكون هو أيضا بريء من الله . فالمعنى : كما أن الكفر لازم لا يفارقه ، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه ، ويكون هو أيضا بريئا من الله . فالمعنى كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة أبداً (4) ثم إن الكفر كان دينهم القديم ولم يتجدد لهم ، أو للمسارة إلى ذكر ما يقال لهم لشدة الاعتناء به ، وهم دون المشركين مع أنهم عبدة أصنام ، والأكثر التعبير عنهم بذلك ؛ لأن ما ذكر أنكى لهم فيكون أبلغ في قطع رجائهم الفارغ . وقيل : هذا للإشارة على أن الكفر كله ملة واحدة . (5) وفي هذا النداء إعلام من الله إلى رسوله وسائر المؤمنين أن ينادوا المكذبين الجاحدين بوصفهم المشتق من الكفر ، فيواجهوهم بالنداء التالي : " يا أيها الكافرون " (6) وهو يتضمن معنى الإهانة ؛ لذلك لم يقع إلا في هذا الموضوع في القرآن (7)

وقد اعتمد النداء في الآية على صيغة اسم الفاعل " الكافرون " واسم الفاعل يدل على ثبوت الوصف في الزمن الماضي ودوامه ، بخلاف صيغة الفعل الماضي " كفروا " لأن الفعل الماضي يدل على وقوع الفعل في الزمن الماضي لا على ثبوته ودوامه . (8)

وأل التعريف في " الكافرون " للجنس ، ولكنها ترجع إلى معنى المجهول ؛ لأنها خطاب لمن سبق في علم الله أنه سيموت على كفره ، فكان المراد بهذا العموم (الجنس) خصوص ، وهم الأشخاص الذين ورد ذكرهم في سبب النزول ؛ لأن من الكفار من أسلم وعبد الله عند نزول هذه الآية . (9)

(1) أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1422—2001 ، ج 8 ، ص 522 .

(2) الألوسي ، روح المعاني ، دار الفكر ، بيروت ، 1414 — 1994 ، ج 29 ، ص 450 .

(3) ابن هشام ، مغني اللبيب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا — بيروت ، 1424 — 2003 ، ج 2 ، ص 402 .

(4) ابن قيم الجوزية ، بدائع القوائد ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط1 ، دار البيان ، دمشق ، 1415 — 1994 ، ج 1 ، ص 153 .

(5) الألوسي ، روح المعاني ، ج 2 ، ص 450 — 451 .

(6) الميداني ، عبد الرحمن حسن حنكة ، معاني التفكير ودقائق التدبر ، ج 1 ، ص 706 .

(7) السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1424 — 2002 ، ج 2 ، ص 65 .

(8) السامرائي ، فاضل ، معاني الأبنية في العربية ، ط2 ، دار عمار ، عمان ، 1428 — 2007 ، ص 44 .

(9) الشوكاني ، فتح القدير ، المكتبة العصرية ، صيدا — بيروت ، 1423 — 2003 ، ج 5 ، ص 646 .

النفي :

الخبر بالنفي والإثبات يكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه . فإذا قلت : (ما هو إلا مصيب ، أو ما هو إلا مخطئ) قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته . (1)

ينصرف نفي الجملة إلى المعنى الدلالي في التركيب ، فالذي ينتفي ليس الإسناد ، وإنما العلاقة المعنوية الطبيعية التي تربط بين المسند والمسند إليه ، أما النفي فإنه ينصرف إلى المعنى الدلالي فقط .

ومن المحدثين من عرّف النفي فقال : " النفي أسلوب لغوي تحدده مناسبات القول ، وهو أسلوب نقض وإنكار ، يستخدم لدفع ما يتردد في ذهن المخاطب " . (2)

والم تأمل في النفي في هذه السورة يجده في الآيات الآتية : " لا أعبدُ ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابدٌ ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد " ففي هذه السورة :

1— اشتمال على النفي المحض ، وهو خاصة هذه السورة ، فإنها سورة براءة من الشرك ، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشرّكين ، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة ، هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحاً فقله : " لا أعبد ما تعبدون " براءة محضة و " لا أنتم عابدون ما أعبد " إثبات أن له معبودا يعبد ، وأنتم بريئون من عبادته ، فتضمنت النفي والإثبات . (3)

2— أتى بأداة النفي (لا) دون (لن) . لأن النفي بـ (لا) أبلغ منه بـ (لن) ، وأن (لا) أدل على دوام النفي وطوله من (لن) . فتأمل حرف (لا) تجد بعد اللام ألفاً يمتد بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس ، فأذن امتداد لفظها بامتداد معناها . وقال السهيلي : إن العرب تنفي بلن ما كان ممكناً عند المخاطب مظلوناً أنه سيكون ، وهذا يبين وجه اختصاصها في القرآن بالمواضع التي وقعت فيها دون (لا) . (4)

3— جاء على (ما) دون (من) حينما نفى عبادتهم " ولا أنتم عابدون ما أعبد " والأصل أن يقول من أعبد . لأن المراد الصفة ، كأنه قال لا أعبد الباطل ، ولا تعبدون الحق . وقيل : إن

"ما" مصدرية أي لا أعبد عبادتكم ، ولا تعبدون عبادتي . (5) لأنه عندما قال : " لا أعبد ما تعبدون " فأطلق (ما) على الأصنام

(1) الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، شرحه د. ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية ، صيدا — بيروت ، 1424- 2003 ، ص331 .

(2) المخزومي ، مهدي ، في النحو العربي نقد وتوجيه ، ط 1 ، المكتبة العصرية ، صيدا — بيروت ، 1974 ، ص 246 .

(3) ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، جـ 1 ، ص 152 .

(4) المرجع السابق ، جـ 1 ، ص 106 + 152 .

(5) الزمخشري ، الكشاف ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1415- 1995 ، جـ 4 ، ص 804 .

قابل الكلام بـ (ما) في قوله (ما أعبد) وإن كان يراد بها الله تعالى ، والأصل من أعبد فحمل الأول على الثاني ليتقابل الكلام ؛ لأن المقابلة يسوغ فيها ما لا يسوغ مع الانفراد.(1) ولعل اعتماد المقابلة كان أنجح في أداء دورها المنوط بها في تحسين المعنى . (2)

4— النفي باسم الفاعل . لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل " ولا أنتم عابدون " وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارة " لا أعبد " وباسم الفاعل أخرى " ولا أنا عابد " والمقصود الأعظم براءته من معبودهم بكل وجه وفي كل وقت ، فأتى أولا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد ، ثم أتى بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت فأفاد في النفي الأول أن هذا لا يقع مني ، وأفاد في الثاني أن هذا ليس وصفني ولا شأني ، فكأنه قال : عبادة غير الله لا تكون فعلا لي ولا وصفا ، فأتى بنفيين مقصودين بالنفي ، وأما في حقهم فأتى باسم الفاعل (عابدون) الدال على الوصف والثبوت دون الفعل ؛ لأن الوصف الثابت اللازم للعائد

لله منتف عنكم ، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة ، وأنتم لما عبدتم غيره فليست من عابديه ، وإن عبدوه في بعض الأحيان ، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره ، وكذا قال المشركون عن معبودهم " ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " [الزمر3] فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره ، فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم ، ونفي الوصف ؛ لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة الله موصوفاً بها . (3)

(1) أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، ج 8 ، ص 523 . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج 2 ، ص 179 .

(2) عتيق ، عبد العزيز ، علم البديع ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1403 — 1983 ، ص 81 .

(3) ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، ج 1 ، ص 151 .

التكرار :

جاء في المزهري : ومن سنن العرب : التكرير والإعادة ؛ إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر . (1) وقال ابن قتيبة : " وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجرى من بعض ، كتكراره في " قل يا أيها الكافرون " ومن مذهبهم التكرار : إرادة التوكيد والإفهام ، كما أن من مذهبهم الاختصار : إرادة التخفيف والإيجاز ؛ لأن افتتاح الخطيب والمتكلم في الفنون ، وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد " . (2)

وورد التكرار في السورة في الآيات الآتية : " لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد " [الكافرون2—5] تظهر فائدة تكرار الأفعال كما يلي : ففي قوله : " لا أعبد ما تعبدون " نفي للحال والمستقبل ، وقوله : " ولا أنتم عابدون ما أعبد " مقابلة له أي لا تفعلون ذلك ، وقوله : " ولا أنا عابد ما عبدتم "

" أي لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي ، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي فقال : " ما عبدتم " فكأنه قال لم أعبد قط ما عبدتم . وقوله : " ولا أنتم عابدون ما أعبد " مقابلة أي لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائما . وعلى هذا فلا تكرار أصلا ، وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضيا وحالا ومستقبلا عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه .
(3)

وذكر ابن قتيبة أن التكرار جاء للتوكيد من السبب الذي أنزلت فيه : " قل يا أيها الكافرون " لأنهم أرادوه أن يعبد ما يعبدون ، ليعبدوا ما يعبد ، وأبدأوا في ذلك وأعادوا ، فأراد الله تعالى حسم أطماعهم وإكذاب ظنوفهم ، فأبدأ وأعاد في الجواب . (4)
ويحتمل التكرار في الآيات وجوها هي :

- 1— أن العرض الذي عرضه يقتضي تقسيم العبادة بين الله وبين الشركاء على نوبات زمانية ، وهذه تقتضي التكرار لدى التطبيق ، فقابلها التعليم الرباني برفض متكرر ، ليقابل الرفض صورة العرض .
- 2— تأكيد الرفض على عادات الناس في تكرير المفردات والجمل للتأكيد ، وله نظائر كثيرة لدى الأدباء والشعراء
- 3— حمل أحدهما على الحال وحمل الثاني على الاستقبال .
- 4— حمل أحدهما على المعبود ، إذا اعتبرنا لفظ (ما) فيه اسم موصول ، وحمل الآخر على نوع العبادة إذا

(1) السيوطي ، المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، ط3 ، دار التراث ، القاهرة ، ج1 ، ص 332 .

- (2) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1423 — 2002 . ص 149 .
- (3) ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، ج 1 ، ص 149 .
- (4) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، ص 151 .

اعتبرنا لفظ (ما) فيه حرف مصدري يكون هو وما بعده في تأويل مصدري ، أي : لا أعبد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتي . (1)

وذكر صاحب ملاك التأويل أن هذه السورة لم يتكرر فيها آية واحدة ؛ لأن كل آية منها تفيد من المعنى وتحرز ما لا تفيده الأخرى . فكأنها متباينة الألفاظ لتباين معانيها . فقله : " لا أعبد ما تعبدون " أي لا أفعل ذلك فيما أستقبله من زماي . وقوله : " ولا أنتم عابدون ما أعبد " ولا أنتم تفعلونه فيما يستقبل . وهذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن أولئك العصبة أنهم لا يؤمنون ، وهم الذين قتلهم الله يوم بدر . فتأمل قوة التحدي وبلاغة الإعجاز في صدق الإخبار عن الغيب . ثم قال : " ولا أنا عابد ما عبدتم " أي : ولا أنا متصف فيما مضى من عمري إلى الآن بعبادة أهتكم ، ولا كنتم أنتم فيما مضى متصفين بعبادة الله سبحانه . فعبر عن أربعة أحول متباينة وهي : حاله عليه السلام وحالهم فيما يستقبل ، وحاله وحالهم فيما تقدم . فعبر عن الحالات الأربع بأربع آيات فلا تكرر . (2)

وهذا التكرار اختصار . وهو إعجاز ؛ لأن الله نفى عن نبيه عبادة الأصنام في الماضي والحال والاستقبال ، ونفى عن الكفار المذكورين في سبب التزول عبادة الله في الأزمنة الثلاثة أيضا ، فافتضى القياس تكرار هذه اللفظة (العبادة) ست مرات فذكر لفظ الحال ؛ لأن الحال هو : الزمان الموجود ، واسم الفاعل واقع موقع الحال ، وهو صالح للأزمنة الثلاثة ، واقتصر من الماضي على المسند إليهم ، فقال : " ولا أنا عابد ما عبدتم " (3)

وبناء عليه فإن التكرار الوارد في السورة ليس تكرار الملل وفساد المعنى ، وإنما أفاد تأكيد الثبات على الحق ، ونفي العروض الزائفة ، وهو تكرار لمعان متعددة .

(1) الميداني عبد الرحمن حسن حبنكة ، معاني التفكير ودقائق التدبر ، جـ 1 ، ص 708 .

(2) الغرناطي ، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ، ملاك التأويل ، تحقيق د. محمود كامل أحمد ، دار النهضة، بيروت، 1405
— 1985 ، ج2 ، ص955

(3) الكرمانى ، محمود بن حمزة ، أسرار التكرار في القرآن ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الفضيلة ، القاهرة ،
ص 256 .

التقديم والتأخير :

ذكر الجرجاني فضل التقديم والتأخير فقال : " هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتّر لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروك مسمعه، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان " . (1) وقد تطرق البلاغيون إلى التقديم والتأخير ، وذلك لأسباب بلاغية يقتضيها السياق اللغوي ورتبة الموقع الإعرابي ، ومفاد ذلك تقديم المعنى إذا كان له أثر كبير في نفس المتكلم . (2)

وقد ورد التقديم والتأخير في سورة الكافرين في آية واحدة هي: " لكم دينكم ولي دين " [الكافرون 6] تظهر هذه الآية البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بيه وبينهم ، ورضى كل بقسمه ، وكان الحق هو صاحب القسمة ، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون الذي لا أرى منه ، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف والحظ الأعظم . فكان بمثلة من اقتسم هو وغيره سما وشفاء فرضي مقاسمه بالسسم ، فإنه يقول له : لا تشاركني في قسمي ولا أشاركك

في قسمك ، لك قسمك ولي قسمي . فكان تقديم " لكم دينكم " أحسن وأبلغ ، كأنه يقول : هذا قسمك الذي أثرته بالتقديم ، وزعمت أنه أشرف القسمين ، فاستحقوا التهكم والنداء على سوء الاختيار وقبح ما رضوه لأنفسهم . ولما كان القصد براءته من دينهم بدأ به أول السورة ، ثم جاء قوله " لكم دينكم " مطابقا لهذا المعنى ، أي لا أشارككم في دينكم ، بل هو دين تختصون به أنتم ، فطابق آخر السورة أولها . (3)

وذكر الشوكاني أن جملة " لكم دينكم " مستأنفة لتقرير قوله : " لا أعبد ما تعبدون " وقوله : " ولا أنا عابد ما عبدتم " كما أن قوله : " ولي دين " تقرير لقوله : " ولا أنتم عابدون ما أعبد " والمعنى : أن دينكم الذي هو الإشراف مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول لي كما تطمعون، وديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم . وحذفت الباء من " ديني " لرعاية الفواصل ، وهو سائغ وإن كانت اسما . (4)

وذهب بعض المفسرين إلى أن تركيب التقديم والتأخير في الآية أفاد التهديد لا الرضى بدين آخر

(1) الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، دار المعرفة ، بيروت ، 1402 — 1981 ، ص 83 .

(2) النجار ، فخري خليل ، الأسس الفنية للكتابة والتعبير ، ط1 ، دار صفاء ، عمان ، 1430 — 2009 . ص 47 .

(3) ابن قيم الجوزية ، بدائع القواعد ، جـ 1 ، ص 154 — 155 .

(4) الشوكاني ، فتح القدير ، جـ 5 ، ص 648 .

كقوله : " اعملوا ما شئتم " [فصلت 40] (1)

وفهم قوم أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه أفاد أمرين : أحدهما : أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم . والصواب أنه لا نسخ في السورة ، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ ، وهي من أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل فيستحيل دخول النسخ فيه ، وهذه السورة أخلصت التوحيد ، ولهذا تسمى سورة الإخلاص .

الثاني : أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب . ولكن معاذ الله أن يكون في السورة إقرار لأحد على دينه ؛ لأنها من أحكام التوحيد كما تقدم ، كما أن الآيات والأحاديث ذكرت في أكثر من موقع أنه أنكر عليهم دينهم وعيبه ، فقال تعالى : " ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " [آل عمران 85] كما أن الرسول — عليه السلام — جاهد الكفار وأهل الكتاب بالحجة كما جاهدهم بالسيف . (2)

(1) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج 2 ، ص 179 . والزحيلي ، وهبة ، التفسير المنير ، ج 15 ، ص 844 .

(2) ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، ج 1 ، ص 155 — 156 .

الخاتمة :

في نهاية هذه الدراسة توصلت إلى النتائج الآتية :

- 1— لسورة " الكافرون " فضائل كثيرة ، منها أنها تعدل ربع القرآن .
- 2— السورة حد فاصل بين الإيمان والكفر ، وهي براءة من الشرك .
- 3— تنوعت التراكيب في السورة وأفادت السياق قوة وإظهارا للمعنى .

- 4— تضمن الخطاب في السورة أعنف المواجهات مع الكافرين ، وهو ليس من عند الرسول ، وإنما مأمور به .
- 5— ظهرت بلاغة تركيب النداء في السورة في عدة جوانب ، وخرج إلى معنى الإهانة .
- 6— كان النفي أكثر التراكيب ورودا في السورة ، وورد بأساليب متنوعة ، وذلك ليدل على رفضه عروضهم ومساومتهم .
- 7— لا يوجد في السورة تكرار ؛ لأن كل آية منها تفيد من المعنى وتحرز ما لا تفيد الأخرى ، فكأنها متباينة الألفاظ لتباين معانيها .
- 8— أفاد التقديم والتأخير في السورة إعلان البراءة بين ديني الإيمان والكفر ، وخرج إلى معنى التهديد والوعيد.

* فهرس المراجع :

- 1— الألوسي ، روح المعاني ، دار الفكر ، بيروت ، 1414 — 1994 .
- 2— الترمذي ، سنن الترمذي ، تحقيق صديقي محمد جميل العطار ، دار الفكر ، بيروت ، 1414 — 1994 .
- 3— الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، دار المعرفة ، بيروت ، 1402 — 1981 .
- 4— ابن جني ، الخصائص ، تحقيق عبد الحميد بن محمد ، المكتبة التوفيقية ، سيدنا الحسين .
- 5— الحريري ، أبو محمد القاسم بن علي ، شرح ملحمة الإعراب ، تحقيق د. فائز فارس ، ط1 ، دار الأمل، إربد ، 1412 — 1991 .
- 6— حسن ، عباس ، النحو الوافي ، ط5 ، دار المعارف ، القاهرة .
- 7— أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني ، الحنفي ، التعريفات ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1421 — 2000 .

- 8- أبو حيان الأندلسي ، البحر المحييط بتحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1422 - 2001 .
- 9- الخالدي ، كريم حسين ناصح ، الخطاب النفسي في القرآن الكريم ، ط1 ، دار صفاء ، عمان ، 1428 - 2007 .
- 10- أبو داود ، سليمان بن الأشعث ، سنن أبي داود ، ط1 ، دار ابن حزم ، بيروت، 1418-1997.
- 11- الدرة ، محمد علي طه تفسير القرآن الكريم وإعراجه وبيانه ، ط1 ، ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، 1430 - 2009 .
- 12- الزحيلي ، وهبة ، التفسير المنير ، ط2 ، دار الفكر ، دمشق ، 1424 - 2003 .
- 13- الزمخشري ، أساس البلاغة ، دار الفكر ، بيروت ، 1409 - 1989 .
- 14- الزمخشري ، الكشاف ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1415 - 1995 .
- 15- السامرائي ، فاضل ، معاني الأبنية في العربية ، ط2 ، دار عمار ، عمان ، 1428-2007 .
- 16- السكاكي ، مفتاح العلوم ، المكتبة العلمية الجديدة ، بيروت .
- 17 ابن سيده ، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، تحقيق محمد علي النجار ، ط1 ، مطبعة الحلبي ، مصر ، 1973 .
- 18- السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1424 — 2002 .
- 19- السيوطي ، المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، ط3 ، دار التراث ، القاهرة .
- 20- شابسوغ ، حفيفة أرسلان ، الجملة الخيرية والجملة الطلبية ، ط1 ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، 1425 - 2004 .
- 21- الشوكاني ، فتح القدير ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، 1423 - 2003 .
- 22- عتيق ، عبد العزيز ، علم البديع ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1403 - 1983 .

- 23— الغرناطي ، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ، ملاك التأويل ، تحقيق د. محمود كامل أحمد ، دار النهضة، بيروت ، 1405 — 1985 .
- 24— الغلاييني ، مصطفى ، جامع الدروس العربية ، المكتبة العصرية ، صيدا — بيروت ، 1423—1981.
- 25— قباوة ، فخر الدين ، إعراب الجمل وأشباه الجمل ، ط3 ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1401 — 1981 .
- 26— ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1423 — 2002 .
- 27— القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق عماد زكي البارودي وخيري سعيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة
- 28— ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط1 ، دار البيان ، دمشق ، 1415 — 1994 .
- 29— الكرماني ، محمود بن حمزة ، أسرار التكرار في القرآن ، تحقيق أحمد عبد القادر عطا ، دار الفضلية ، القاهرة .
- 30— المخزومي ، مهدي ، في النحو العربي نقد وتوجيه ، ط1 ، المكتبة العصرية ، صيدا — بيروت ، 1964 .
- 31— مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ، ط1 ، دار ابن الجوزي ، القاهرة ، 2010 .
- 32— ابن منظور ، لسان العرب ، ط3 ، دار إحياء التراث ، بيروت ، 1419 — 1999 .
- 33— الميداني ، عبد الرحمن حسن حنكة ، معارج التفكير ودقائق التدبر ، ط1 ، دار القلم ، دمشق ، 1420 — 2000 .
- 34— النجار ، فخري خليل ، الأسس الفنية للكتابة والتعبير ، ط1 ، دار صفاء ، عمان ، 1430—2009.
- 35— ابن هشام ، مغني اللبيب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا — بيروت ، 1424 — 2003 .
- 36— ابن يعيش ، شرح المفصل ، تحقيق أحمد السيد سيد أحمد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة .